علاقة الإسلام بالآخر

obeikan.com

obeikan.com

علاقة الإسلام بالآخر

أدب الحوار فى الإسلام

أرسى الإسلام قواعد التعامل مع معتنقى الأديان الأخرى على نحو لم تصل إليه الحضارة الحديثة ؛ إذ كانت العلاقات بين أتباع الأديان المختلفة منذ الأزل متوترة ، وصلت فى كثير من الأحيان إلى إراقة الدماء أنهاراً ، فإن سكنت قرقعة السلاح بين الحين والآخر ، فإن التراشق بالكلمات ظل متواصلاً ، لا يعرف الهدوء ، ولا يقر التوقف لسماع الآخر ، فالجدل الدينى ظل سيد الموقف بين المتدينين . ورمى كلٌّ الآخر بالهرطقة والكفر أصبح أسلوباً من أساليب التدين ، ومظهراً من مظاهر التقوى والصلاح . وتفنيد ضلال الآخر وانحرافه نغمة محببة عند دعاة كل دين . والدعاء على الآخر بالهلاك والدمار وتيتيم الأطفال ، وترميل النساء ....و.....و..... إلخ سُنَّة – إن لم تكن واجباً – من سنن التقرب إلى المعبود ، وإجبار كلُ الآخر على اعتناق عقيدته التى ارتضاها ديناً من أكبر الواجبات الدينية ، إن لم يكن أكبرها ، يضحى فى سبيلها المتدين بكل ما يملك ... حتى نفسه ، يقدمها قرباناً لمعبوده ، حتى ينال رضاه ، ويحصل على ثوابه .

حتى جاء الإسلام ، فنهى عن سباب أتباع الأديان الأخرى ، مهما كان وضع عقدتهم – سماوية أم بشرية – وعلى أى مستوى كانت درجات القيم والمبادئ التى يعتنقونها ويدعون إليها ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، أى ولا تسبوا الذين يتخذون معبوداً آخر غير الله إلهاً لهم ، سواء كان هذا المعبود بشراً ، أو حجراً ، أو أى صورة من الصور المادية فى هذا الكون .

كما رسم الإسلام منهج الدعوة إلى الإسلام ، بعيداً عن العنف والاستهزاء بالآخر ، أو التعالى عليه ، فقال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، بل إنه مدح الصالحين من أتباع الأديان الأخرى ، فقال :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ (٧٥) ﴾ [آل عمران :٧٥] ، وقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [البقرة : ٦٢] ، وأثنى على من يخشع لله ويطلب المغفرة منه ، فقال : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) ﴾ [المائدة : ٨٢ – ٨٥] ، ولم يجبر من رفض الإسلام على الدخول فيه ، فقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٢٥٦) ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، بل إنه استنكر حرص الرسول ﷺ على هداية قومه ، حينما اقترب هذا الحرص من رغبته على إكراههم وحملهم بالقوة على اعتناق الإسلام ، فقال له : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس : ٩٩] ، وهذه من أهم المبادئ – إن لم يكن أهمها – فى مجال حرية الرأى والتعبير ، التى تحتل رأس قائمة حقوق الإنسان فى العصر الحديث .

عَلّم الإسلام المسلمين أدب الحوار فى مجال تصحيح ما لدى الآخرين من أخطاء فى العقيدة ؛ إذ أورد فى القرآن الكريم آيات كثيرة ، ترشد المخطئين إلى الصواب بأسلوب لين ، وتعبيرات مهذبة ، وإشارات رقيقة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان : ٣] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج : ٧٣ - ٧٤]

وكان دقيقاً فى الحديث عمن أخطئوا فى حق الله تعالى ، فقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة : ٧٣] ، فلم يقل : لقد كفر المسيحيون الذين قالوا ..... لأن منهم من لم يقل ذلك ، وكان فى جداله معهم مهذباً ، حتى مع الذين تمادوا فى تأليه عيسى عليه السلام ؛ إذ لم يستعمل فى خطابهم أسلوباً جارحاً ، أو استهزاءً منكراً ، فقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة : ١٧]

التعدد فى المجتمع الإسلامى

تموج المجتمعات الإنسانية — منذ البدء وإلى الأبد — بتعدد الرؤى والأفكار ، وتنوع الميول والاتجاهات ، وكثرة الأديان والعقائد ، ورغبة كل إنسان فى فرض ما لديه على الآخر ، وإخضاعه لأفكاره وعقيدته ، الأمر الذى نتج عنه تدافع ، وتطاحن ، واقتتال ، وخاصة ما كان الدين دافعه ، والعقيدة أساسه ؛ فقد زخر التاريخ البشرى بنماذج محاولة إخضاع البشرية فى مجمل جوانب الحياة لحاكم قوى سيد ، وقمع الحرية الفردية للآخرين ، كما أن معظم — إن لم يكن كل — المعارك المسلحة التى دارت بين البشر على امتداد التاريخ الإنسانى قامت على أساس دينى ، وكان محركها الأول والأساسى هو التعصب ، وعدم التسامح مع المخالفين فى الأفكار والعقائد .

احتلت قضية الصراع الدينى مكان الصدارة فى تاريخ صراع الجنس البشرى ، إذ لم يخل عصر من العصور من وجود خصومة بين الشعوب على أساس دينى ، تصل فى كثير من الأحيان إلى حد الصراع المسلح بينها ، كذلك لا يلقى اثنان من أتباع دينين مختلفين إلا وتقوم بينهما مناقشات ومحاورات حول مبادئ وتعاليم عقيدتيهما ، تارة تكون بألفاظ مهذبة ، وأخرى تصل إلى حد التراشق بالألفاظ الخارجة عن موضوع البحث ، أو بأسلوب يتسم بالعنف والبعد عن الطريق الموصلة إلى الحقيقة.

كان هذا هو طابع الصراع الدينى والخصومات المذهبية منذ القدم ، شب عليها الجنس البشرى ، جيلاً بعد آخر ، فأورثته ذلك أحقاداً وخصوماً بين الشعوب ، كما أنه خلف من الضحايا والمآسى ما تقشعر منه الأبدان ، إذ لم تروع البشرية على امتداد التاريخ الإنسانى بمثل ما روعت به مما حل بها من آثار التعصب الدينى الذى مزق الجنس البشرى إلى معسكرات متحاربة ، يقتل بعضها بعضاً باسم الدين ، ويستحل بعضها دماء آخرين فى سبيل الدعوة إلى العقيدة ، بل إن أبناء الدين الواحد تفرقوا شيعاً وأحزاباً يقتل بعضهم بعضاً فى سبيل فرض رأى على آخر.

كان التعايش بين أصحاب الأديان والعقائد المختلفة فى مجتمع واحد يكاد يكون مستحيلاً ؛ فلم تقبل الأغلبية الدينية الاعتراف بالآخر ، فضلاً عن السماح له بممارسة طقوسه وتطبيق شعائره فى حياته الاجتماعية فعاشت الأقلية الدينية — فى كثير من المجتمعات الإنسانية — مضطهدة ، لم تهنأ بحياة كريمة ، ولم تأخذ حقها فى الوجود ، اللهم إلا ما يجود به الآخر عليها ، حتى جاء الإسلام

فأعلنها صريحة مدوية على لسان نبيه ﷺ فى حجة لوداع : " **أيها الناس ..... كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ....** "، كذلك عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة واستقر بها ، رأى أن سكانها يتألفون من ثلاث قطاعات اجتماعية : المسلمين ، واليهود ، والمشركين ، وكانت التقاليد العربية قائمة على رابطة الدم والقرابة ، لكن الوضع الجديد غير هذه العلاقة ، فأصبحت : مسلمين (مهاجرون وأنصار) ، ويهود ، ومشركين عرب ، فرأى الرسول ﷺ بثاقب فكره وإلهام من الله أن يرسى قواعد جديدة تنظم العلاقة بين المسلمين – وهم من قبائل متعددة – ، ومشركون عرب – وهم أيضاً من قبائل مختلفة ، ويهود – ولا تضمهم قبيلة واحدة – بل كانوا بطون وعشائر متعددة .

صاغ الرسول ﷺ قواعد التعامل بين هذه المجموعات البشرية – المختلفة فى دينها ، والمتعددة فى أسس الترابط بينها – فى وثيقة ، عُرِفَت باسم : " وثيقة المدينة " ، وأطلق عليها العلماء والمفكرون فى العصور اللاحقة : " وثيقة السلام " ، لأنها أرست مبادئ السلام بين القبائل العربية المتحاربة ، وبينهم وبين اليهود الذين كان بينهم وبين العرب المجاورين لهم ضغائن وإحن ، فوحدت هؤلاء جميعاً فى جبهة واحدة ، يتناصحون فيما بينهم ، ويتآزرون على من يعتدى عليهم ، فهم يد واحدة على من يهدد بناءهم الاجتماعى ، ووحدتهم السياسية .

جاء فى هذه الوثيقة أنها كتاب من محمد النبى (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب (أى سكان المدينة من عرب ويهود) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم :

- أنهم أمة واحدة ،
- وأنهم يد واحدة على من ابتغى أو ظلم ، أو ارتكب إثماً أو فساداً ، فهم عليه جميعاً ، حتى ولو كان وَلَدَ أحدهم .
- وأنه لا يحل لأحد أقر بما فى هذه الوثيقة أن ينصر مجرماً ،
- وأنهم جميعاً يحاربون من حارب أهل هذه الصحيفة ،
- وأنهم يد واحدة على من هاجم يثرب ،
- وأن هذه الوثيقة لا تحول دون التصدى للظالم مهما كانت هويته ،

- وأن من خرج من المدينة فهو آمن ، ومن بقى فيها فهو آمن إلا من ظلم أو ارتكب إثماً .

إن هذه الوثيقة مثال واضح للتعايش السلمى بين الأعراق والأجناس المختلفة ، ونموذج فريد للقوانين الدولية التى تدعو **للمواطنة** فى الدول المختلفة ، وصيغة مثلى لتفاهم بين الشعوب على مستوى الإنسانية ، ومما يزيدها إجلالاً وإكباراً أنها صدرت ونُفِّذت فى بداية القرن السابع الميلادى ، فكانت فريدة فى مبادئها ، عظيمة فى قواعدها التى وُضِعَت للتعامل بين الناس على أساس المساواة بينهم جميعاً رغم اختلاف أجناسهم وأعراقهم ، و تعدد عقائدهم وأديانهم .

أخوة إنسانية فى الإسلام

كان اليهود من أوائل الشعوب التى ابتدعت تمايز الأجناس البشرية ، وعلو طبقاتها فوق بعض ، وذلك بزعمهم أنهم المفضلون عند الله ، أو هم شعب الله المختار ، أما بقية الشعوب فحثالة لا قيمة لها عند الله . كذلك تصور الإغريق أنهم المتمدينون ، ومن عداهم برابرة متوحشون . و لم يختلف الحال عند المصريين القدماء ، فقد كانوا يرون أنهم أبناء الشمس ، وشعب الله المعبود .

وانتشرت هذه الفكرة عند الرومان ، فأبناء روما هم الفضلاء الأحرار وغيرهم عبيد أرقاء ، كما أن الصينيين اختصوا أنفسهم بالمدنية والحضارة ، ومَنْ عداهم جهلة بدائيون ، ومن المؤسف حقاً أن أرسطو ، ذا العقل الكبير والآراء النيرة قال : " إن البشر جنسان ، أحرار وعبيد ، فالأحرار هم الذين يجب أن يحموا العالم ، أما العبيد فهم آلات صماء فى أيدى الأحرار ." ولعل دعاة التمييز العنصرى فيما مضى من القرون استندوا على هذه الفكرة الزائفة من أفكار أرسطو ، واتخذوها أساساً لعدوانهم على الطبقات التى كانوا يعدونها طبقات سفلى ، فسلبوهم حقوقهم ، و عاملوهم معاملة سيئة ، لأنهم أدنى منهم وأحط شأناً .

أما الإسلام فلم تقتصر وصيته للمسلمين بحسن معاملة وحفظ حقوق الآخرين على إخوانهم فى العقيدة ، الذين يعيشون معهم فى مجتمع واحد بل أمرهم أيضاً أن يحسنوا معاملة المخالفين لهم فى العقيدة – وإن نأت ديارهم عنهم – ماداموا يرعون حرمات الإسلام ، ولا يأتون عملاً يترتب عليه

إيذاء المسلمين ، أوتهديد أمنهم ، يقول تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[الممتحنة : ١]

وقد سلك الإسلام فى إقامة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين منهجاً يستميل العاطفة ، ويؤثر تأثيراً كبيراً على مشاعر الإنسان فى مجال التقريب بين أفراد البشر ، ذلك أنه بَيَّن أن أصل الناس واحد ، فهم مشتركون فى مبدأ الخلق ومادته ، التى تَفَرَّع عنها جميع الآدميين ، فهم وإن اختلفوا فى الألوان والأشكال ، وتباينوا فى الهيئات والملامح فإنهم منحدرون من أب واحد وأم واحدة ، مما يحتم عليهم أن ينهجوا فى سلوكهم مع بعض الأسلوب الذى ينبغى أن يسود بين الإخوة ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء : ١] ، فإن هذه الآية تذكرة للإنسان بوحدة أصل البشرية جمعاء ، ودعوة له إلى العمل على ما يقوى الرابطة والتعاون والتكاتف بين أفرد البشرية فى كل أنحاء الكرة الأرضية باعتبارهم جميعاً أقارب ذوى رحم واحدة .

وعى المسلمون هذا الدرس على أحسن ما يكون الوعى والإدراك ، فاتسمت معاملتهم — فى أغلب الأحيان – مع أهل العقائد الأخرى بالتسامح وحسن الجوار ، والتعاون على الخير لجميع أفراد البشرية ، لأن الإسلام أباح لأولى الأمر أن يقيموا علاقات سياسية مع الدول الأخرى ، رغم الاختلاف فى الدين ، وأن يكون بينهم تبادل تجارى ، بل إن المسلمين ضربوا أروع الأمثال فى عدم التعصب ضد المخالفين لهم فى العقيدة ، وذلك عندما احتضنوا الفلسفة اليونانية — وغيرها من الفلسفات القديمة – ، فدرسوها ، وناقشوها ، فأقاموا بذلك الجسور مع الفكر البشرى كله على اختلاف اتجاهاته ، وتباين أشكاله ، وتنوع قنواته ، وتغاير ألوانه ، مما يدل على أنهم يؤمنون بوحدة الإنسانية ، فعملوا على إسعادها ، وتجنب آلامها .

لم يرد وجوب الحوار مع الآخر فى أى دين من الأديان كما ورد فى الإسلام ، وكذلك لم يهتم أى مذهب من المذاهب الفكرية بالحوار مع الآخر اهتمام الإسلام به ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ

بالحوار مع أهل الكتاب ، مما جعل الحوار الدينى مبدأً أساسيًّا فى منهج الدعوة إلى الإسلام ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، وبهذا كان الحوار مع الآخر فريضة من فرائض الإسلام ، التزم به النبى ﷺ ، فأجرى حوارات مع الوفود التى وفدت عليه فى المدينة ، والتى بلغت أكثر من ثلاثين وفداً فى عام واحد ، سمى **عام الوفود** ، وكان من أشهر تلك الوفود ، وفد نصارى نجران ، الذى قدم المدينة بقيادة أسقفهم أبى الحارث ، فتحاور معهم النبى ﷺ . ومما يدل على سماحة الإسلام وتعامله مع الآخر بأسلوب حضارى فى ذلك العصر — الذى لم يعرف المتخاصمون فيه (فى أغلب الأحوال) إلا السيف لغةً للحوار — أنه ﷺ سمح لأعضاء الوفد أن يقيموا صلاتهم فى أحد أركان مسجده ﷺ ، وتلك لفتة لم يُعْرَف مثلها فى تلك العصور ، ونادراً — بل يكاد يكون من المستحيل — أن يحدث مثلها فى هذا العصر — فى القرن الواحد والعشرين — الذى يفخر أبناؤه بأنهم قطعوا شأواً كبيراً فى الحضارة ، مما جعلهم يتعاملون مع الآخر بأسلوب مهذب وراقٍ .

ومن المبادئ الإسلامية التى تدعو المسلم إلى التعايش مع الآخر والحوار معه واحترام رأيه :

– الحرية ، فقد قدسها الإسلام ، ودعا إلى كفالتها ، ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً يقول الله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ويقول : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس : ٩٩]

فالله يبين لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان ، فلا ينبغى أن يمارس أحد الإكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الإيمان نابعاً من ذات الشخص نفسه حتى يثمر إيمانه ، لأن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا فعله الإنسان ، وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم ، بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل يكفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الإنسانى ، وأعطاهم حرية كاملة فى ممارسة بناء المجتمع ، فلا زال قول عمر بن الخطاب ﷺ: " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** " ناقوساً يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلناً أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الإسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الإنسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة ، لا تتزعزع أمام عواصف الدهر وتقلبات الأيام .

ومما يدل على سماحة الإسلام مع الآخر ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عهداً مع بقائهم فى أماكنهم ، وإقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين ، وقد تضمن هذا العهد حمايتهم ، والحفاظ على حرياتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم . وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد ، فأراد أن ينقضه ، فمنعه محمد بن الحسن ، صاحب الإمام أبى حنيفة . وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، إذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى إقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير صفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخذ من الإجراءات ما يحمى قدسيتها ، وهى :

- تقبله للثقافات والحضارات الأخرى ، مما يدل على أن فكرة الصراع الحضارى لا وجود لها فى مبادئه وتعاليمه ، ويوضح نظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس الأخرى ، ولهذا أقام حضارة كبرى أسهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة ، والفكر ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ،

واللغة ، والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً لكل الحضارات قبلها فى : الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضارياً ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : : " **إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك .**"

فالإسلام دين يحث أتباعه على الاتصال بثقافة الآخر والأخذ منها إتباعاً لقول رسول اللهﷺ : " **الكلمة (الحكمة) ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها** " [1]، فهو لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، و م يحرم عليهم التزود بأى نوع من الثقافات الإنسانية ، و لم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، و لم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمن فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لأنه عبد الله الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

اتبع المسلون هدى رسول الله ﷺ فى هذا المجال فحاوروا أهل الأديان بالتى هى أحسن ، وتعايشوا معهم على أساس الأخوة الإنسانية ، فلم يجبروهم على اعتناق الإسلام ، و لم يضطهدوهم لمجرد أنهم يخالفونهم فى العقيدة ، بل رفعوا عنهم ظلم إخوانهم فى العقيدة واضطهادهم لهم ، فقد حدث أن عمرو بن العاص حين فتح مصر ، كان البطريرك المسيحى بنيامين مختفياً ، لأن وطأة استبداد البيزنطيين **المسيحيين** فى البلاد كانت عنيفة ، وطبقاً لنص تاريخ البطاركة : لما عرف

---

[1] الترمذى ٥/٥١ رقم ٢٦٨٧ ، تهذيب التهذيب ١/١٢١

عمرو بذلك كتب إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه : الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله . فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته . فلما سمع بنيامين هذا عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشرة سنة . منها عشر سنين لهرقل الرومى ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية.[٣١] ، ثم التقى عمرو بنيامين " فلما رآه (عمرو) أكرمه . وقال لأصحابه : إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلا يشبه هذا . وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً ، جيد الكلام بسكون ووقار . ثم التفت عمرو إليه وقال له : جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم ."[٣٢]

لقد أرسى الإسلام قاعدة صلبة فى مجال التعامل مع الآخر ، باختياره أسلوب الحوار ، كى يوضح الفكر البشرى ويبين مدى صلته بالتراث الإلهى ، ولا يكون ذلك إلا باحترام الحرية فى التعبير ، وسماع ما عند الآخر ، وعرض مبادئ وتعاليم الإسلام عليه دون إكراه ، بل بالتفاهم والأدلة العقلية– وبالتعبير الإسلامى : " **بالحكمة .... وبالمجادلة بالتى هى أحسن** – ؛ إذ لا يمكن للشعوب أن تتقدم إلا بتبادل المعلومات ، ومناقشة القضايا : قضايا السلم والعدل ، **وغيرهما من المشكلات التى يواجهها الإنسان فى مسيرة بنائه الحضارى ، والتعاون فيما بين الشعوب على أساس احترام الآخر ، ومعرفة ما عنده من مبادئ وقيم .**

قوبل الإسلام فى كثير من مناطق الشرق الأوسط بترحاب وارتياح من قِبَل المسيحيين ، ويرجع هذا الموقف إلى عدة عوامل :

أولاً : تسامح الإسلام إزاء القضايا المتعلقة بإقامة طقوس العبادة المسيحية .

ثانياً : حماية المسلمين الفاتحين للمسيحيين من تعديات واعتداءات الإمبراطورية البيزنطية غير المتسامحة مطلقاً فيما يخص بعض المذاهب المسيحية المخالفة لمذهبها .

ثالثاً : اعتماد العرب المسلمين على أبناء جلدتهم من القبائل المسيحية وكانت تلك القبائل منتشرة فى تلك البلاد .

---

(٣١) وليم سليم : الحوار بين الأديان صـ ١٠٨ ، نقلا عن ساويرس ابن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية . طبعة اقنص – الجزء الثانى .

(٣٢) المصدر السابق صـ ١٠٩ . ويقول المؤرخ القبطى الأسقف يوحنا النقيوسى : " احترم عمرو أملاك الكنيسة ، و لم يقترف عملاً يعاب عليه . فحيا أهل البلاد عهد السلام الذى ، وإعادة نشاط الكنيسة الوطنية ، وأديرة وادى النطرون ودير أنبا مقار ، وحباء الرهبان أفواجاً يوكدون إخلاصهم للقائد العربى " حسين فوزى : سندباد مصرى صـ ١٦٤ .

رابعاً : عدم اعتراف الإسلام من حيث المبدأ بالاختلافات القومية .

اعترف الإسلام بثلاثة أوضاع أو أشكال دينية يندرج تحتها رعايا الدولة ، وهى :

١. طائفة المؤمنين .

٢. أهل الكتاب .

٣. أهل الشرك .

فالمشركون هم الذين لم يقروا بالتوحيد ، مثل عبدة الأوثان والأصنام ، وهؤلاء ظلوا تحت حماية الدولة الإسلامية ، ماداموا لم يعلنوا عن عقيدتهم ، أو يمارسوا أى عمل من شأنه إلحاق الضرر بالبنية الاجتماعية .

أما أهل الكتاب ، فهم اليهود والنصارى فهم فى ذمة وعهد المسلمين ، لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، يمارسون طقوسهم بحرية ، ويتمتعون بكل ما للمسلمين من حقوق مدنية ؛ ذلك لأنهم أهل كتاب سماوى ، فاليهود يتمسكون بالتوراة ، والنصارى يتمسكون بالإنجيل – وهما كتابان سماويان – ، وهم يقرون بالتوحيد الإلهى ، ويعترفون باليوم الآخر ، فهم أهل ذمة ، انطلاقاً من أن الحقوق التى أعطاها الإسلام لهم جاءت بمقتضى ذمة الله وذمة محمد ﷺ وذمة المسلمين ، وقد أعطى الرسول ﷺ الذمة ، كما أعطاها خلفاؤه وأمراء الجيوش الإسلامية الفاتحة ، وعمال الأمصار . واستناداً إلى ذلك أعطى الإسلام اليهود والنصارى الحق فى الوجود جنباً إلى جنب مع المسلمين فى إطار جماعات خاصة ، شريطة أن يؤدوا " الجزية " للمسلمين .

والذمة : هى العهد والضمان والأمان . وسمى أصحابها بـ " أهل الذمة " لأن لهم عهد الله وعهد رسوله ، وعهد جماعة المسلمين : أن يعيشوا فى حماية الإسلام ، وفى كنف المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين ، فهم فى أمان المسلمين وضمانهم ، بناءً على " **عقد الذمة** " ، فهذه الذمة تُعْطِى أهلها من " غير المسلمين " ما يشبه فى عصرنا " الجنسية " السياسية . فالذمى على هذا الأساس من أهل " **دار الإسلام** " ، كما يعبر الفقهاء ، أو من حاملى " **الجنسية الإسلامية** " كما يعبر المعاصرون . و " **عقد الذمة** " عقد مؤبد ، يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم ، وتمتعهم بحماية الجماعة الإسلامية ورعايتها ، بشرط بذلهم " **الجزية** " ، والتزامهم أحكام القانون الإسلامى فى غير

الشئون الدينية ، وبهذا يصيرون من أهل " **دار الإسلام** " . وهو عقد ينشئ حقوقاً متبادلة لكل من الطرفين : المسلمين وأهل ذمتهم . وأهم حقوق " **أهل الذمة** " فى " **دار الإسلام** " هى :

- حق الحماية ، وهى تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجى ، ومن كل ظلم داخلى ، حتى ينعموا بالأمان والاستقرار . وقد كثرت الآيات والأحاديث الواردة فى تحريم الظلم وتقبيحه ، إضافة إلى أحاديث ومواقف نبوته (وللصحابة والخلفاء المسلمين) تحذر من ظلم أهل العهد والذمة .
- والحق الآخر " **لأهل الذمة** " هو حق حماية دمائهم ، وأنفسهم ، وأبدانهم ، كما يتضمن حماية أموالهم وأعراضهم ،
- وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين من رعايا دولته كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونهم .
- ويحمى الإسلام فيما يحميه من حقوق " **أهل الذمة** " حرية الاعتقاد والتعبد ،
- ويضمن لكل ذى دين دينه ومذهبه ، حيث لا يُجْبَر على تركه إلى غيره ، ولا يضغط عليه أى ضغط ليتحول إلى دين الإسلام .
- وأباح لهم إقامة شعائرهم وإعلان طقوسهم فى بيعهم وكنائسهم .
- كما أباح لهم الجهر بها فى أحيائهم ومحلاتهم ،
- وأقرهم على إتباع أحكام دينهم فيما ينشأ بينهم من معاملات ومرافعات .
- كما أباح الدين الإسلامى لهم أن يزوجوا نساءهم للمسلمين ،
- وأحل للمسلمين ذبائحهم ،
- وأجرى التوارث فيما بينهم ،
- ولم يرد شهادتهم على المسلمين عند الضرورة .
- و " **لأهل الذمة - الحق فى تولى وظائف الدولة كالمسلمين** " ، إلا ما غلب علية الصفة الدينية كالإمامة ، ورئاسة الدولة ، والقيادة فى الجيش ، والقضاء بين المسلمين ، والولاية على الصدقات ونحو ذلك ، وماعدا ذلك من وظائف الدولة

يجوز إسناده إلى **"أهل الذمة"** ، إذا تحققت فيهم الشروط التى لابد منها من الكفاية ، والأمانة ، والإخلاص للدولة .

- وقد صرح فقهاء كبار ، مثل الماوردى فى " الأحكام السلطانية " بجواز تقليد الذمى **"وزارة التنفيذ"** ، ووزير التنفيذ هو الذى يبلغ أوامر الإمام ، ويقوم بتنفيذها ، ويُمْضى ما يصدر عنه من أحكام ، وينبئنا التاريخ أن بعض الخلفاء أسند إلى يهود ومسيحيين منصب الوزارة .

والتاريخ الإسلامى مليء بالوقائع التى تدل على التزام المجتمع الإسلامى حماية أبنائه من **"أهل الذمة"** من كل ظلم يمس حقوقهم المقررة ، أو حرماتهم المصونة ، أو حرياتهم المكفولة .[٣٣]

أما واجبات هؤلاء المواطنين (أهل الذمة) فتنحصر فى الأمور التالية :

١. أداء الجزية ، وهى ضريبة سنوية على عدد الأفراد تتمثل فى مقدار زهيد من المال يُفْرَض على الرجال البالغين القادرين ، على حسب ثروتهم ، أما الفقراء فيُعْفَوْن منها إعفاءً تاماً.
٢. عليهم الالتزام بأحكام القانون الإسلامى المطبق فى المعاملات المدنية ونحوها .
٣. عليهم احترام شعائر المسلمين وعباداتهم ومشاعرهم .[٣٤]

وفى الإمبراطورية العثمانية كان للمسيحيين أنشطة واسعة فى الميادين الاجتماعية ، كما كان لهم إسهامات كبيرة فى الأعمال الحرفية والزراعة والتجارة والطب والمال . كذلك تمكنوا من الوصول إلى وظائف وأعمال إدارية مهمة فى بعض المناطق . وقد أشار آدم ميتس إلى أن المواقع الأكثر ربحاً ودخلاً مادياً كان يشغلها المسيحيون واليهود الذين تمسكوا بها بقوة وكثافة ، لاسيما

---

[٣٣]) فقد روى أن صبيين : أحدهما مصرى نصرانى والآخر ابن عمرو بن العاص ، والى مصر وحاكمها ، تشاتما ، فأخذت العزة ابن عمرو ، فصفع ابن النصرى ، وقال له : أنا ابن الأكرمين ، فما كان من أبيه إلا أن أخذه وسافر به إلى المدينة ، ليشكو لعمر بن الخطاب .

قطع هذه المسافة الطويلة بوسيلة مواصلات بدائية ، ليرفع شكواه من أمر يحدث كل يوم بين الأطفال ، بل إن الآباء كثيراً ما يتغاضون عن مثل هذه الإهانات لأولادهم ، إذا أدركوا بعض مشقة فى رفع الأمر إلى ولى أمر الطفل المعتدى ، لكن النصرانى قطع هذه المسافة الطويلة ليتأكد مما يدعيه المسلمون من أن دينهم أمرهم بإقامة العدل ، حتى ولو كان بين أولى القربى والأعداء .

فأثبت له عمر ﷺ بأن الإسلام ليس شعارات ترفع ، وإنما هو مبادئ آمن بها المسلمون ، والتزموا بها ، فاستدعى عمرو وولده ، وأمر ابن النصرانى أن يضرب ابن عمرو كما ضربه ، ثم قال لعمرو كلمته المشهورة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . "

[٣٤]) راجع : القرضاوى : غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .

الأعمال المصرفية ، وفى تجارة الأقمشة والزراعات الكبيرة ومهنة الطب .[٣٥] وفى مصر ، مثلاً ، كانت المشاريع المالية يديرها تقليدياً الأقباط ، وبصورة عامة ، فإن غالبية أشكال النشاط الاجتماعى للمسيحيين ، كانت تضمن لهم قبل كل شيء مراكز مؤثرة فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية فى المدن الإسلامية . وكما أشار أحد المؤخرين العرب ، فإنه على مدى القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد ، صار عدد كبير من رعايا السلطان (العثمانى) المسيحيين أغنياء وأشخاصاً مؤثرين ، إضافة إلى أنهم ارتبطوا بعلاقات تجارية وثقافية ، وأحياناً بعلاقات سياسية مع البلدان الأوربية . ولهذا شهدت المدن فى كل ولاية وإقليم من الإمبراطورية تطوراً وتنامياً فى الوحدات والمشتركات العائدة للمسيحيين .[٣٦]

كان للمسيحيين دور كبير فى حركة القومية العربية – التى انطلقت فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين – ، مؤيدين لها ومدافعين عنها ، من منطلق أنهم جزء أصيل من الأمة العربية إذ رأى دعاة التنوير من المسيحيين أنها – أى القومية العربية – هى الطريق التى يمكن أن تؤدى إلى بلوغ المساواة التامة مع المسلمين ، حيث أن تكاتفهم معهم فى الوحدة العربية سبيل إلى نمو الشعور بالتوحد فى إطار الوطن الواحد والمصير الواحد ؛ فقد خاطب بطرس البستانى العرب جميعاً _ مسلمين ومسيحيين – بقوله : يا أبناء الوطن ، أنتم تشربون الماء نفسه ، وتستنشقون الهواء نفسه . أنتم تتكلمون لغة واحدة ، وتعيشون على أرض واحدة ، لديكم عادات مشتركة ، وتطلعات مشتركة .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر ما قاله المسيحى خليل إسكندر قبرصى فى مقال له نشِرَ فى عام ١٩٣١م فى مجلة الفتح القاهرية بعنوان : **"دعوة نصارى العرب للدخول فى الإسلام"** حيث قدم من خلالها المسوغات التالية :

١. إن المسيحية الأولى ، التى ظهرت أساساً فى المشرق العربى ، حُرِّفت وشُوِّهَت من جانب الأوربيين ، الذين حولوها إلى " دين للعبودية والاستعباد " .

٢. إن المسيحيين الأوربيين هم الذين اضطهدوا المسيحيين الشرقيين .

---

[٣٥] انظر : أليكسى جورافسكى : الإسلام والمسيحية ، ترجمة : خلف محمد الجراد صـ ١٨٨

[٣٦] المصدر السابق صـ ١٨٨ نقلاً عن .A. Hourities in the Arab World., P. ٢١

obeikan.com

٣. الإسلام دين الديمقراطية والتسامح .

٤. الديانات الصحيحة لها هدف واحد ، يتجلى فى محبة الله والناس .

٥. المسيحيون الشرقيون يجب أن يدخلوا الإسلام ، وبذلك يرجعون إلى المسيحية الصحيحة .

٦. مادام أن الإسلام هو دين العرب ، فإن ذلك يشكل حجة إضافية لاعتناقه من طرف المسيحيين العرب . [٣٧]

فى القرن العشرين :

لم يؤثر الصراع بين الشرق الإسلامى والغرب " المسيحى " طوال القرنين – الثامن عشر والتاسع عشر — على حسن العلاقة بين المسلمين وبين مواطنيهم المسيحيين — وكذلك اليهود – ؛ فقد ظل السلام والوئام سائدين بينهما على الرغم من اشتداد المعارك بين الأوربيين المستعمرين وبين شعوب الشرق الأوسط المستعمَرَة ، التى قاست كثيراً من ويلات العنف المسلح الأوربى ، وتعرضت لكثير من استغلال واستتراف ثرواتهم من قِبَل الدول الأوربية - **المسيحية** - ، بل إن كثيراً من المسيحيين الشرقيين وقفوا بجانب مواطنيهم المسلمين ضد القوات الغازية - **المسيحية** - ، فحملوا السلاح معهم للدفاع عن وطنهم ، فكما اشترك بعض المسيحيين الوطنيين فى صفوف القوات الإسلامية فى الحرب ضد الأوربيون الغزاة فى الحروب الصليبية ، لم يتخلفوا عن الاشتراك فى ثورة ١٩١٩م ضد الاحتلال البريطانى لمصر ، فكان من بين زعماء الثورة الذين قبضت عليهم القوات البريطانية مسيحيون ، ولم يكن هناك أبلغ فى الدلالة على التحام المسيحيين مع المسلمين فى مصر مما قاله القمص سرجيوس فى الخطبة التى ألقاها من على منبر الجامع الأزهر : " إذا كانت حجة بريطانيا لاحتلال مصر حماية الأقباط ، فليمت الأقباط وليحيا المسلمون أحراراً "

ولم يختلف الأمر مع اليهود ؛ إذ لم ينعموا بالسلم والأمن فى أى قطر من الأقطار التى سكنوها بمثل ما كان لهم فى المجتمعات الإسلامية ، فقد عاشوا مواطنين مع إخوانهم المسلمين فى مصر —

---

[٣٧] المصدر السابق صـ ٢١٧، نقلاً عن : S. G. Haim. Arab Nationalism. An Anthology. (Los Angeles, ١٩٦٢) PP.٥٩-٦١.

وكذلك فى الأقطار الإسلامية الأخرى - ، فكان لهم شأن كبير فى مجال التجارة والصناعة - وخاصة فى صناعة وتجارة المعادن النفيسة — فكثير من المراكز التجارية الكبرى كانت ملكاً لليهود ، كما تبوئوا مراكز مرموقة فى المؤسسات المالية المؤثرة فى الاقتصاد الوطنى . وظل ذلك حالهم على امتداد التاريخ الإسلامى باستثناء بعض الحالات الفردية ، حتى وقعت الأحداث فى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية على أيدى الصهيونيين منهم ، فكان من الطبيعى أن يتبدل الحال ، لكن ليس مع اليهود ، لكونهم يهوداً ، بل مع الصهيونيين ؛ إذ يصرح المسئولون فى العالم الإسلامى — وكذلك المسلمون بوجه عام — أنهم ليسوا ضد اليهود ، ولكنهم ضد الصهيونيين منهم ، بسبب ما ارتكبوه — وما زالوا يمارسونه حتى الآن — فى حق الفلسطينيين .

لأول مرة فى تاريخ الكنيسة ناقش الفاتيكان الثانى (١٩٦٢ - ١٩٦٥) على مستوى مذهبى — عقائدى مشكلة العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية ، حيث خصص لهذه المسألة المهمة تصريحاً خاصاً حول " علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية (N·stra Aetate) والذى نوقشت بعض جوانبه بصورة أو بأخرى فى عدد من الوثائق الصادرة عن المجمع : فى " الدستور العقائدى فى الكنيسية " (Lumen Genium) ، وفى " الدستور الرعوى فى الكنيسة وعالم اليوم " (Gadium et Spes) ، وفى القرارات المجمعية : " فى رسالة العلمانيين " (Apostolican actuositatem) ، و " فى مهمة الأساقفة الرعوية فى الكنيسة " ، وفى " نشاط الكنيسة الإرسالى " (Ad Gentes) ، وفى البيانات والإعلانات الصادرة عن المجمع " فى الحرية الدينية " (Dignitates humanae) ، و " التربية المسيحية " (Gravissimum ed.cationes) . كما أولى هذا المجمع اهتماماً خاصاً للإسلام ، فللمرة الأولى منذ أربعة عشر قرناً من وجود المسيحية والإسلام يتحدث مجمع مسكونى كاثوليكى بصورة إيجابية عن المسلمين ، معترفاً بوضعهم الدينى المتميز ، ولهذا شبهت المطبوعات الكاثوليكية التغير الحاصل فى موقف الكنيسة تجاه الإسلام بـ " الانقلاب الكوبرنيكى " . وهو تشبيه غير مبالغ فيه ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، أن رسالة البابا بيوس الثانى عشر " Fidie Donum " ، الصادرة فى أواخر الخمسينيات (١٩٥٧) رأت فى انتشار الإسلام فى إفريقيا " خطراً على الكنيسة " . وأن كتاب " تاريخ الإرساليات الكاثوليكية " ، المؤلف من

أربعة مجلدات والصادر فى المرحلة نفسها ، نظر إلى نشاط الإسلام وفعاليته العالمية ، ككارثة ، تضاهى خطر الشيوعية . [٣٨]

ويهمنا فى هذا المقام الوقوف عند النص النهائى لتصريح المجمع بشأن الديانة الإسلامية ، الذى جاء فيه : " إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحى القيوم الرحيم القادر على كل شيء ، خالق السماء والأرض ومكلم البشر ، الذين (أى المسلمين) يجتهدون فى أن يخضعوا بكليتهم ..... حتى لأوامر الله الخفية ، كما خضع إبراهيم ، الذى يُسنَد إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامى . وأنهم يُجِلّون يسوع كنبى ، وإن لم يعترفوا به كإله ، ويكرمون أمه مريم العذراء ، كما أنهم بتقوى يتضرعون إليها أحياناً . علاوة على ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين ، عندما يُثيبُ الله كل البشر القائمين من الموت ، ويعظمون الحياة الأخلاقية أيضاً ، ويؤدون العبادة لله ، لاسيما بالصلاة والزكاة والصوم .

وإذا كانت قد نشأت على مر القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين ، فالمجمع المقدس يَحُضُّ الجميع على أن يتناسوا الماضى ، وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل ، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والخير الأخلاقى ، والسلام والحرية لفائدة الناس جميعاً . [٣٩]

إن قضية الوضع الدينى لنبى الإسلام (محمد) هى واحدة من الإشكاليات المعقدة فى الحوار المعاصر بين هاتين الديانتين ؛ فاللاهوتيون الكاثوليك يعترفون بـ " الدور الإيجابى التاريخى لمحمد"، لكنهم لم يوفقوا بعد إلى عبارات إنشائية مناسبة لوصف المآثر المحمدية بصيغ لاهوتية - عقائدية مسيحية . ويحضرنا فى هذا السياق مثال المؤتمر الإسلامى — المسيحى الثانى ، الذى عقد فى آذار ١٩٧٧م (فى قرطبة) ، وكرس لمناقشة موضوع " تبجيل محمد وعيسى فى الإسلام و المسيحية " ، والذى اشترك فيه أكثر من مائتى لاهوتى وعالم إسلاميات . ولكن مجموعة من الأقطار العربية رفضت إرسال مندوبين عنها إلى المؤتمر ، محتجة بعدم جدوى أى حوار بين الديانتين ، " مادام أن الكنيسة لن تغير رسمياً موقفها من النبى محمد "

---

[٣٨]) المصدر السابق صـ ١٣٧ - ١٣٨ ، نقلاً عن : Historie universelle des mission catholiques. Vol. ٣-٤. (Paris : ١٩٥٨-١٩٥٩) . p. ١٧٦

[٣٩]) Nostra Aetate ١٩٦٥.No. ٣

هل يريد المتحاورون من الحوار الوصول إلى التعايش السلمى بين البشر ، بصرف النظر عن عقائدهم ، وانتماءاتهم الدينية ، أم هو وسيلة ابتدعها الغرب لتنويم الناشطين فى مجال الدعوة الإسلامية ، حتى تخلو الساحة للمبشرين تحت ظلال سلاح القوات التى تمركزت فى عدد من أقطار العالم الإسلامى ؟

هل يهدفون من الحوار إلى رفع المسائل العقدية من المناهج الدراسية ، حتى يقتنع الدارسون من شباب العالم الإسلامى بأنه ليس هناك فرق بين الإسلام والمسيحية ، وعليه فلا حرج أن يعتنق المرء أحد الدينين ، ما دام رؤساء المؤسسات الدينية يركزون فى لقاءاتهم على أن الإسلام والمسيحية عقيدتان متساويتان ، لا فرق بينهما ، الأمر الذى يؤدى إلى شل فاعلية الدعاة حين يبنون للناس : أن الدين عند الله هو الإسلام وليس غيره ؟

هل يراد من الحوار خداع المسلمين بشعارات الأخوة ، ونداءات التعايش ، حتى يهمل المسلمون دعوتهم ، فتخلو الساحة للمبشرين ودعاة وحدة الأديان ، فتتلاشى قيم الإسلام من وجدان الأمة ؟

وهل يبدو الحوار وسيلة للخداع ، أم أسلوب للتعايش السلمى ؟

وبصرف النظر عن التحولات الإيجابية الملحوظ فيما يخص موقف الكنيسة الكاثوليكية تجاه العالم الإسلامى ، فإن الحوار يجرى حالياً بشكل أساسى على مستوى نخبوى ، وليس على نطاق جماهيرى . ويبقى الحاجز النفسى هو العائق الرئيسى ، الذى يقسم الحضارتين والثقافتين ، حيث ورث الطرفان تاريخاً طويلاً من سوء التفاهم ، ومن التنافس الدينى والتحدى المتبادل ، والذى وصل فى مرات غير قليلة إلى درجة " الحوار " بالسيف . وقد لعبت الكنيسة الغربية ، كما يعترف اليوم بأسف وندم ممثلوها ، دوراً فعالاً فى ذلك " الحوار " بالسلاح . وعرضت نفسها لكثير من الشبهات عند ممارسة بعض مرسليها أعمالهم التبشيرية فى القرنين الأخيرين . ولهذا ليس مستغرباً أن تنظر الشعوب الأفرو-آسيوية إلى الدعوة الجديدة للحوار (من جانب الكنيسة الغربية) بعين الشك والحذر ، حيث ترى فيها خطأً أيديولوجياً بالدرجة الأولى .

لا تحتاج العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى المجتمعات الإسلامية إلى مثل هذه الدعوة إلى الحوار التى أطلقها الفاتيكان فى ستينات القرن الماضى ، فالعلاقة بينهما كانت ، ولازالت علاقة

محية وتعايش ، ولم يشعر المسيحيون يوماً بأنهم أقلية مهضومة حقها بين أغلبية مسلمة تستأثر بالميزات لنفسها وتحرم الأقلية المسيحية من الإسهام فى جميع الأنشطة فى المجتمع ؛ فقد كون الشيخ محمد عبده فى عام ١٨٩٢م الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجعل تمويل أنشطتها من تبرعات المواطنين ، فكان من بين المتبرعين مسيحيون ويهود .

كما عين الزعيم سعد زغلول أقباطاً وزراء فى حكومته التى ساندها البرلمان الذى كان من بين أعضائه أقباط ، وقد عبر سعد عن ذلك فى خطبته التى ألقاها فى ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢م فى دار البطريركية القبطية بقوله : " يسرنى أن يكون البرلمان مملوءاً بالأكفاء ، سواء كانوا مسلمين أو أقباطاً " .

ومن الأقباط من حفظ القرآن الكريم ونبغ فى الشعر ، ومنهم من كان يحضر دروس الإمام محمد عبده ، وقد درس " أولاد العسال الثلاثة فى الأزهر ، ومثلهم صاحب صحيفة " الوطن " الذى درس فى الأزهر ، وهى صحيفة للأقباط ، ثم انتقل إلى دار العلوم عند تأسيسها .

وفى سنة ١٩٢٣م كان ويصا بك ناصف يخطب فيقول : " إن مصر لا تعرف أكثرية وأقلية ، والقول بأن القبط أقلية هو حكم عليهم بأنهم أجانب ، ليس فى مصر إلا جنس واحد كونته القرون المتعاقبة كما امتزجت فيه دماء الشهداء بعد ذلك ."[٤٠]

وكان للمسيحيين إسهامات كبيرة فى العمل السياسى ، فقد اشتركوا فى الثورة ضد الاحتلال الإنجليزى ؛ فقد تبادل القمص سرجيوس والشيخ على الزنكلونى الكلمات فى هذه الثورة على منبر الأزهر ، وفيهما يقول الشاعر :

الشيخ والقس قسيسان * وإن تشأ فقل هما شيخان

وفى معارك مصر فى أكتوبر عبر الجيش المصرى القنال (١٩٧٣م) بجنود أبطال ، مسلمين ومسيحيين . ولما رشحت مصر أميناً عاماً للأمم المتحدة فى نيويورك اختارت بطرس غالى (المسيحى) ، وقبلته دول العالم – وهو ابن أخ واصف بطرس غالى وزير الخارجية لسعد زغلول ، وحفيد بطرس غالى رئيس وزراء كان فيها سعد زغلول وزيراً للمعارف – وقد أصرت

---

[٤٠] طارق البشرى : المسلمون والأقباط

مصر على ترشيحه لمدة تالية وساندتها فى ترشيحه كثرة دول العالم ، ولكن القوة **المسيحية** الكبرى فى العالم رفضت أن يتولى هذا المسيحى المنصب مرة ثانية [٤١]

الإسلام أول دين على وجه الأرض آمن بتعدد الأديان ، واعترف بـه فى مجتمعـه الأول فى المدينة ، حيث تكونت أول دولة إسلامية ، والتزم المسلمون بهذه الفلسفة عبر تاريخهم حتى يومنـا هذا ، فإن وجدت فترات شد وجذب بين المسلمين وغيرهم من أتباع الأديان الأخـرى ، فهـى استثناء من القاعدة ، وغالباً ما كان السبب فى إشعالها قوى خارجية ، لم تستهدف نصرة الآخر ، وإنما أرادت الانقضاض على المجتمعات الإسلامية والسيطرة عليها ، لتتمكن من نهـب ثرواتهـا ، واستغلال الموقع الجغرافى لفرض هيمنتها على العالم .

---

[٤١]) راجع : المستشار عبد الحليم الجندى : حقوق غير المسلمين فى مصر وفى العالم الإسلامى

obeikan.com